مثقلا، جلست ساكنا على مقعدي، أغمضت عيني، رأيت امرأة طويلة ممتلئة ترتدي الأسود، جلبابا وغطاء رأس، ترفع طرفه لتغطي فمها كلما أقدمت على الكلام. كانت أشبه بجدة ريفية. كيف عرفت أنها من اليمن؟ لم تقل ذلك، ربما قالت إنها من العراق، هل قالت إنها جدة كردي؟ نسيت. صاحت المرأة: أخرجوه من البيت، هذا الزائر ذو القبعة يقصد شرا، يحمل في أذياله الشر!» قرفصت المرأة، أحاطت صدغيها بكفيها. كررت بصوت خافت: «ملعون من يفرِّط في نور عينيه». فتحت كفيها، تملتهما كأنها تقرأ المخطوط فيهما، قالت: يا الله، لماذا تكتب على ذُرِّيتي أن تضيِّع نعمة البصر؟ التفتت إلى ابنها وصاحت: يا يوسف اخلع القبعة. يا يوسف قل للورد ديفرين أن يغادر البيت. لا تتبعه يا يوسف، سيسحبك إلى بئر بلا قرار، لن يرويك في البئر ماء، ليس ماءً يا يوسف، إنه دم!»

عادت المرأة إلى الجلوس مقرفصة وراحت تنوح. فتحت عيني. استغربت ما رأيت، حاولت أن أفهم من أين أتتني تلك الصورة لكي أفهم معناها، تأملتها طويلا وظل فهمها مستغلقا علي.

ليس كل ما أراه في تلك الغفوات القصيرة المعلقة بين الصحو والمنام مبهما. أحيانا أرى وجوها أليفة، وأسمع كلاما يبدد وحشتي ويظل يلازمني بعدها بيوم أو يومين، وقعه في أذني يملؤني سكينة كأنني عدت طفلا في فراشي تميل على أمي بجذعها لتحكم الغطاء حول جسمي وهي تبتسم ابتسامتها الجميلة تزيدها جمالا الغمازتان في وجنتيها، ورثهما عنها أخي. هو أيضا يأتيني في تلك الغفوات. ساعتها أعرف أن لقاءاتنا كسَحْبَة الناي، تؤنس الروح، ولكنها تختلف عن رؤيتي الفعلية له. أقصد التقائي الفعلي به الذي كذّبته شهرزاد واتهمتني بسببه أمام القاضي بالجنون. أرى أخي كثيرا في تلك السَحْبَات، نتحدث معا، أحكي له ويحكي لي، أشكو له أحوال الدنيا وحالي، هو لا يشكو.